فصل
[في مواقع التمثيل وتأثيره]

واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه[1] ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً.

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهز للعِطف،

---

(1) يقول إن للتمثيل مظهرين، ويتجلى للأنظار في ثوبين (أحدهما) أن يجيء المعنى ابتداء في صورة التمثيل، وهو النادر القليل. ولكنه على قلته في كلام البلغاء كثير في القرآن العزيز، فمنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17] الآية وقوله بعدها: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: 18] الآية. وقوله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171] وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: 41] الآية وقوله تبارك اسمه ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [الرعد: 17] الآية، وغير ذلك (وثانيهما) ما يتأثر المعاني ويجيء في أعقابها لإيضاحها وتقريرها في النفوس وإيداعها التأثير المخصوص، وهو الذي جعله المصنف أولاً، ومثاله من القرآن قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: 29] فقد أورده بعد ما قرر أمر التوحيد من أول السورة وشنع على الذين اتخذوا من دونه أولياء يقربونهم إليه زلفى، ونصب الدلائل على نفي هذا الشرك وذكر الجزاء. ومثله من الشعر ما يجيء في ضروب الكلام الآتية.

وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغُرَّ المواهب والمنائح، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر[1].

وإن كان ذماً كان مَسُّه أوجع، ووِسمه ألذع، ووقعه أشد وحده أحد[2].

[التمثيل في الحجاج والافتخار والاعتذار]

وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر[3]. وإن كان

---

(1) مثاله من القرآن قوله تعالى في وصف الصحابة: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: 29] ومن الشعر قولنا في المقصورة:

وإن قسا وديده لان وإن ... يكدر عليه راق ورداً وصفا
يؤمن منه الطيش في شرته ... والحلم والإغضاء سنه يرتجى
تواضع عن شمم ورفعة ... ورقة من غير عجز وونى
ألم تر الهواء في رقته ... ولطفه أوتي شدة القوى
يكاد يلمس الثريا رفعة ... من حيث تلقاه يصافح الثرى

والتمثيل في البيتين الأخيرين وهو من النوع الأول، ومنها قول بعضهم:

فتى عيش في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

(2) مثاله من القرآن قوله تعالى في الذي أوتي الآيات فانسلخ منها: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: 76] أي يخرج لسانه من العطش أو التعب وهو من باب منع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يَس: 8، 9] ومقمحون من أقمح الغل الأسير: ترك رأسه مرفوعاً لضيقه، ومن الشعر قوله:

رأيتكم تبدون للحرب عدة ... ولا يمنع الأسلاب منكم مقاتل
فأنتم كمثل النخل يشرع شوكه ... ولا يمنع الخرّاف ما هو حامل

الخرّاف بالتشديد صيغة مبالغة اسم الفاعل من خرف الثمار إذا جناها ومنه المثل:

ولو لبس الحمار ثياب خز ... لقال الناس يا لك من حمار

(3) مثاله من القرآن ما تقدم من الآيات في بيان طريقتي التمثيل ومن الشعر قول أبي العتاهية:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

وقوله غيره:

ونار لو نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رماد

افتخاراً كان شأوه أبعد، وشرفه أجد، ولسانه ألد[1].

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسلَّ، ولغرب الغضب أفل، وفي عُقَد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث[2].

ومن الأمثال: «إن العوان لا تعلم الخمرة» وهي بكسر المعجمة الهيئة من الخمار والعوان بالفتح: النصف من النساء أي التي بين الشابة والعجوز، والمثل يضرب في المجرب العارف المستغني عن التعليم، ومنها «كدابغة وقد حلم الأديم» أي أفسده الحلم وهو بالتحريك: دود صغير وقيل: الحلمة الصغيرة من القردان والضخمة ضد.

(1) الشأو: السبق والغاية والأمد. وقوله أجد أي: أعظم. والألد: الشديد الخصومة. ما يجيء في القرآن من بيان عظمة اللّه تعالى وكماله لا يسمى افتخاراً ومثال هذا الضرب من الكلام العزيز وإن اختلفت التسمية قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67] ومثاله من الشعر قول عبد المطلب:

لا ينزل المجد إلا في منازلنا ... كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

(2) السخائم: الضغائن، وسلها: نزعها واستخراجها، وغرب السيف: حده، وفل السيف: ثلمه. والنفث في العقد هو النفخ فيها مع إلقاء شيء من الريق عليها لأجل تسهيل حلها. ومنه: نفث الراقي في العقدة التي يعقدها ثم يحلها يوهم بذلك الناس أنه أبرم بعقدها رابطة المحبة بين فلان وفلانة وبحلها أنه حل ذلك العقد وأبطل ذلك الارتباط بسحره، وإن الكلام البليغ ليفعل بحسن التمثيل في حل عقد العقود ما لا يفعل السحر، وإن من البيان لسحراً والاعتذار لا يوجد في القرآن إلا حكاية عن أصحاب المعاذير الكاذبة ليكون الاعتذار حجة عليهم فهو اعتذار في الظاهر واحتجاج في المعنى وأثره ما ذكر في الاحتجاج دون ما ذكرها كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: 5] وأما أمثلته في الشعر فكثيرة منها:

لا تحسبوا أن رقصي بينكم طرب ... فالطير يرقص مذبوحاً من الألم

ومنها في الاعتذار عن صدود الحبيب:

بأبي حبيباً زارني في غفلة ... فبدا الوشاة له فولى معرضاً،

فكأنني وكأنه وكأنهم ... أمل ونيل حال بينهما القضا

ومن الاعتذار يذكر التمثيل ما وقع لأبي تمام في قصيدة يمدح بها أحمد بن المعتصم قيل: إنه كان ينشده إياها فبلغ قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

فلامه بعض الناس قائلاً: قد شبهت ابن عم النبيﷺ بأجلاف العرب (أو ما هذا معناه) فأطرق هنيهة وقال ولم يكونا من القصيدة:

[التمثيل في الوعظ]

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلي الغياية[1]، ويبصر الغاية، ويبرىء العليل ويشفي الغليل[2].

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباس
فاللَّه قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس

وعمرو هذا هو ابن جابر بن هلال الفزاري ويقال العمران له ولبدر بن عمرو بن جؤبة الفزاري ـ ومما يصلح للاعتذار من الأمثال قولهم * كل امرىء في بيته صبي يعتذر به» عن الدعابة والاسترسال في المباسطة في الخلوة وقولهم: «لو ترك القطا ليلاً لنام».

(1) الغياية بياءين مثناتين كل ما أظلك من فوق رأسك.

(2) مثاله من القرآن الكريم قوله تعالى في وصف نعيم الدنيا: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: 20] الكفار: الزراع لأنهم يكفرون الحب أي يسترونه بالتراب، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: 21] الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72] وقوله عز وجل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: 21] وقوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: 49 ـ 51] وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: 261] وقوله في الآية الأخرى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: 265] وقوله في تمثيل من يحبط عمله الصالح بالإيذاء أو الرياء: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: 266] وفي معناه قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: 18].

ومن الأمثال حديث: «إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»، وحديث: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»، ومن الشعر قول ابن النبيه:

الناس للموت كخيل الطراد ... فالسابق السابق منها الجواد

وقوله غيره:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي والطبيب مريض

[التمثيل في ضروب الكلام المختلفة]

وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه، وتتبعت أبوابه وشعوبه[1]،

(1) يشير المصنف إلى سائر مناحي الكلام كالغزل والرثاء والوصف والشكوى وهي مع الذي ذكر وشائج متشابكة، وأمشاج متمازجة. وأعمها الوصف فهو الطويل الذيل، المتدفق السيل، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: 11]. ومثله قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [هود: 44] الآية ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: 24، 25] وقوله بعده: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: 26]، وهكذا الحق يثبت والباطل يزهق. ومن ذلك الرؤى فإنها تمثيل للواقع الذي تعبر به كالرؤى المذكورة في سورة يوسف عليه السلام. ومثاله من الشعر قول ابن النبيه:

والليل تجري الدراري في مجرته ... كالروض تطفو على نهر أزاهره

وقول بعضهم في وصف الكأس يعلوها الحباب والساقي (أو هذا من تعدد التشبيه):

وكأنها وكأن حامل كأسها ... إذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها ... بدر الدجى بكواكب الجوزاء

وفي وصف الأمير والجيش:

يهز الجيش حولك جانبيه ... كما نفضت جناحيها العقاب

ومنه قولنا في المقصورة في وصف الوفاق:

لم تختلف في مبتدأ مسألة ... إلا وكان للوفاق المنتهى
كمن على المحيط من دائرة ... أتى تفارقا فبعد ملتقى

وقولنا منها في وصف روضة:

والشمس تبدو من خلال دوحها ... آونة تخفي وطوراً تجتلى
كغادة وضاحة قد أتلعت ... من خلل الجوف ترنو والكوى
تلقى على الروض تثير عجد ... فتحسب الروض عروساً تجتلى

وقولنا منها:

والباسقات رفعت أكفها ... تستنزل الغيث وتطلب الندى

ثبت في العلوم الطبيعية أن الأشجار تكون سبباً لنزول المطر فمثلت هنا بحال المستسقين يجاب دعاؤهم ويليه قولنا:

تمتلج الكربون من ضرع الهوا ... تؤثرنا بالأكسجين المنتقى

ومعناه: أن الأشجار الباسقة ترضع غاز الكربون وتمتصه من الهواء تتغذى به وهو سام

وإن أردت أن تعرف ذلك، وإن كان تقل الحاجة فيه إلى التعريف ويستغني في الوقوف عليه عن التوقيف فانظر إلى نحو قول البحتري:

[تعليل بلاغة الكلام بتأثيرها في النفس]

دانٍ على أيدي العفاة وشاسع عن كل ند في الندى وضريب[1]
كالبدر أفرط في العلو وضوءه للعصبة السارين جدُّ قريب[2]

وفكر في حالك وحال المعنى معك وأنت في البيت الأول لم تنته إلى الثاني ولم تتدبر نصرته إياه، وتمثيله له فيما يملي على الإنسان عيناه، ويؤدي إليه ناظراه، ثم قسمهما على الحال وقد وقفت عليه، وتأملت طرفيه، فإنك تعلم بعد

لنا وتترك لنا أكسجين الهواء المطهر للدم في أبداننا باستنشاقنا له في الهواء، فمثلت بحال حي عاقل ينتزع ما يضر الناس ويؤثرهم بما ينفعهم.

وقول ابن دريد في وصف النوق:

يرسبن في بحر الدجى وفي الضحى يطفون في الآل إذا الآل طفا

ومن أحسن ما يدخل من التمثيل في باب الغراميات قول المجنون:

وقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل بي النقض والإبرام حتى علانيا

وقوله:

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

وقوله بعضهم:

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعهن أليم

وقول الآخر:

إني وإياك كالصادي رأى نهلا ودونه هوة يخشى بها التلفا
رأى بعينيه ماء عزّ مورده وليس يملك دون الماء منصرفا

ومن الأمثال التي تدخل من باب الشكوى: «ليس لها راع ولكن حلبة» حلبة بالتحريك جمع حالب، والمثل يضرب للأمة المظلومة. و«لو كويت على داء لم أكره» يضرب لمن يعاقب على غير ذنب، و«سال بهم السيل وجاش بنا البحر».

(1) الضريب: المثل والنظير.
(2) أي بالغ الغاية في القرب.

ما بين حالتيك، وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك، وتحببه إليك، ونبله في نفسك، وتوفيره لأنسك، وتحكم لي بالصدق فيما قلت، والحق فيما ادعيت»[1].

وكذلك فتعهد الفرق بين أن تقول: فلان يكد نفسه في قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئاً، وتسكت. وبين أن تتلو الآية وتنشد قول الشاعر[2]:

زوامل للأشعار لا علم عندهم ... بجيدها إلا كعلم الأباعر[3]
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا ... بأوساقه أو راح ما في الغرائر

والفصل بين أن تقول: أرى قوماً لهم بهاء ومنظر، وليس هناك مخبر، بل في الأخلاق دقة، وفي الكرم ضعف وقلة، وتقطع الكلام، وبين أن تتبعه نحو قول الحكيم: أما البيت فحسن وأما الساكن فرديء.

وقول ابن لَنْكك:

في شجر المرو منهم مثل ... له رُواء وماله ثمر

وقول ابن الرومي:

فغدا كالخلاف يورق للعيـ ... ـن ويأبى الإثمار كل الإباء

وقول الآخر:

فإن طرة راقتك فانظر فربما ... أمرَّ[4] مذاق العود والعودُ أخضر

وانظر إلى المعنى في الحالة الثانية كيف يورق شجره ويثمر، ويَفتر ثغره ويبسم، وكيف تشتار الأرى من مذاقته[5]، كما ترى الحسن في شارته[6] وأنشد

---

(1) مثال المدح ويتلوه مثال الذم.
(2) الآية قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: 5]. والشاعر مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يهجو قوماً من رواة الشعر، رواه ابن بري (ش).
(3) الزوامل: جمع زاملة وهي التي يحمل عليها من الإبل وغيرها، والأباعر جمع بعير.
(4) أمر صار مراً كمر الثلاثي.
(5) الأرى: العسل. واشتياره: اجتناؤه.
(6) تطلق الشارة على الهبة واللباس.

قول ابن لنكك:

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجا رأيت صورته من أقبح الصور

[الفرق بين تأثير الكلام في التمثيل وعدمه]

وتبين المعنى واعرف مقداره ثم أنشد البيت بعده:

وهبك كالشمس في حسن ألم ترنا نفر منها إذا مالت إلى الضرر

وانظر كيف يزيد شرفه عندك، وهكذا فتأمل بيت أبي تمام[1]:

وإذا أراد اللَّه نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

مقطوعاً عن البيت الذي يليه، والتمثيل الذي يؤديه، واستقص في تعرّف قيمته، على وضوح معناه وحسن مزيته[2] ثم أتبعه إياه:

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وانظر هل نشر المعنى تمام حلته، وأظهر المكنون من حسنه وزينته، وعطرك بعرف عوده، وأراك النضرة في عوده، وطلع عليك من مطلع سعوده، واستكمل فضله في النفس ونبله، واستحق التقديم كله إلا بالبيت الأخير، وما فيه من التمثيل والتصوير.

وكذلك فرق في بيت المتنبي:

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مراً به الماء الزلالا

لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة كقولك: إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته ويخيل إليه في الصواب أنه خطأ. هل كنت تجد هذه الروعة؟ وهل كان يبلغ من وقم الجاهل ووقذه[3] وقمعه وردعه، والتهجين له

(1) شروع في مثال الحجاج.

(2) وفي نسخة بزته.

(3) وقم الرجل: قهره وأذله ورده عن حاجته أقبح الرد، والوقذ: الضرب القاتل بغير محدد يكون أطول ألماً وأشد تعذيباً ولأجله حرمت الموقوذة ويسند إلى الكلام تجوزاً.

والكشف عن نقصه، ما بلغ التمثيل في البيت وينتهي إلى حيث ينتهي.

وإن أردت[1] اعتبار ذلك في الفن الذي هو أكرم وأشرف فقابل بين أن تقول: إن الذي يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره ـ وتقتصر عليه ـ وبين أن تذكر المثل فيه على ما جاء في الخبر من أن النبيﷺ قال: «مثل الذي يعلّم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه» ويروى: «مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها»[2] وكذا فوازن بين قولك للرجل وأنت تعظه: «إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تغر نفسك» وتمسك. وبين أن تقول في أثره: «إنك لا تجني من الشوك العنب وإنما تحصد ما تزرع» وأشباه ذلك. وكذا بين أن تقول: لا تكلم الجاهل بما لا يعرفه ونحوه. وبين أن تقول: لا تنثر الدر قدام الخنازير، أو لا تجعل الدر في أفواه الكلاب» وتنشد نحو قول الشافعي رحمه اللّه: * أأنثر درّاً بين سارحة الغنم*[3] وكذا بين أن تقول: الدنيا لا تدوم ولا تبقى وبين أن تقول «هي ظل زائل، وعارية تسترد، ووديعة تسترجع» وتذكر قول النبيﷺ: «من في الدنيا ضيف وما في يديه عارية، والضيف مرتحل والعارية مؤداة» وتنشد قول لبيد:

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وقول الآخر:

إنما نعمة قوم متعة وحياة المرء ثوب مستعار

[أسباب قوة تأثير التمثيل وعلله النفسية]

فهذه جملة من القول تخبر عن صيغ التمثيل وتخبر عن حال المعنى معه، فأما

(1) شروع في أمثلة الوعظ ولم يمثل للافتخار والاعتذار.

(2) بهذا اللفظ رواه الطبراني في معجمه الكبير عن أبي برزة بسند حسن.

(3) المصراع الثاني: * وأنثر منظوماً لراعية النعم * وهي أبيات قالها بمصر في أثر مجيئه إليها لما كلمه بعض أصحاب مالك وآخرها:

فمن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

القول في العلة والسبب: لم كان للتمثيل هذا التأثير؟ وبيان جهته ومأتاه، وما الذي أوجبه واقتضاه، فغيرها. وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسباباً وعللاً كل منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل، ويشرف ويكمل، فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس؛ وعما يعلم بالفكر، إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام؛ وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: «ليس الخبر كالمعاينة[1] ولا الظن كاليقين» فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة وضرب آخر من الأنس وهو ما يوجبه تقدم الألف كما قيل:

* ما الحب إلا للحبيب الأول *

ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولاً من طريق الحواس والطباع ثم من جهة النظر والرؤية، فهو إذن أمس بها رحماً، وأقوى لديها ذماماً، وأقدم لها صحبة وآكد عندها حرمة، وإذا نقلتها في الشيء يمثله عن المدرك بالعقل المحض، وبالفكرة في القلب، إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع، وعلى حد الضرورة، فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر، إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل، ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول ها هو ذا، فأبصره تجده على ما وصفت.

---

(1) هذه الجملة حديث نبوي رواه الطبراني في الأوسط والخطيب عن أبي هريرة ورويناه مسلسلاً بالإشراف عن شيخنا أبي المحاسن القاوقجي ولا أذكر له رواية بزيادة: «ولا الظن كاليقين» ورواه أحمد والحاكم والطبراني في الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس بزيادة: «إن اللّه تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت».

(فإن قلت) إن الأنس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر إنما يكون لزوال الريب والشك في الأكثر، أفتقول إن التمثيل إنما أنس به لأنه يصحح المذكور والصفة السابقة، ويثبت أن كونها جائز ووجودها صحيح غير مستحيل حتى لا يكون تمثيل إلا كذلك؟ فالجواب أن المعاني التي يجيء التمثيل في عقبها على ضربين: غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدَّعي امتناعه واستحالة وجوده وذلك نحو قوله:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام وفاتهم إلى حد بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة، بل صار كأنه أصل بنفسه، وجنس برأسه، وهذا أمر غريب، وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس، وبالمدعي له حاجة إلى أن يصحح دعواه في جواز وجوده على الجملة، إلى أن يجيء إلى وجوده في الممدوح. فإذا قال: «فإن المسك بعض دم الغزال». فقد احتج لدعواه وأبان أن لما ادعاه أصلاً في الوجود، وبرأ نفسه من صفة الكذب وباعدها من سفه الْمُقدِم على غير بصيرة، والمتوسع في الدعوى من غير البينة، وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته، حتى لا يعد في جنسه، إذ لا يوجد في الدم شيء من أوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه، لا ما قل ولا ما كثر، ولا في المسك شيء من الأوصاف التي كان لها الدم دماً البتة.

(والضرب الثاني) أن لا يكون المعنى الممثل غريباً نادراً يحتاج في دعوى كونه على الجملة إلى بينة وحجة وإثبات. نظير ذلك أن ينفي عن فعل من الأفعال التي يقطعها الإنسان الفائدة، ويدعي أنه لا يحصل منه على طائل ثم يمثله في ذلك بالقابض على الماء والراقم فيه، فالذي مثلت ليس بمنكر مبتدع، إذ لا ينكر خطأ الإنسان في فعله أو ظنه وأمله وطلبه. ألا ترى أن المغزى من قوله[1]:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

(1) وفي نسخة: المغزى في قوله.

أنه قد خاب في ظنه أنه يتمتع بها، ويسعد بوصلها، وليس بمنكر ولا عجيب ولا ممتنع في الوجود، خارج من المعروف المعهود، أن يخيب ظن الإنسان في أشباه هذا من الأمور، حتى يستشهد على إمكانه، وتقام البينة على صدق المدعي لوجدانه.

[سبب تأثير التمثيل في ضربيه]

وإذا ثبت أن المعاني الممثلة تكون على هذين الضربين؛ فإن فائدة التمثيل وسبب الأنس في الضرب الأول بيّن لائح، لأنه يفيد فيه الصحة، وينفي الريب والشك، ويؤمن صاحبه من تكذيب المخالف وتهجم المنكر وتهكم المعترض، وموازنته بحالة كشف الحجاب عن الموصوف المخبر عنه حتى يرى ويبصر، ويعلم كونه على ما أثبته عليه موازنة ظاهرة صحيحة.

وأما الضرب الثاني فإن التمثيل وإن كان لا يفيد فيه هذا الضرب من الفائدة، فهو يفيد أمراً آخر يجري مجراه، وذلك أن الوصف كما يحتاج إلى إقامة الحجة على صحة وجوده في نفسه، وزيادة التثبيت والتقرير في ذاته وأصله، فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده ومبلغه في القوة والضعف والزيادة والنقصان، وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر أولاً إلى التشبيه الصريح الذي ليس بتمثيل كقياس الشيء على الشيء في اللون مثلاً «كحنك الغراب»[1] تريد أن تعرف مقدار الشدة لا أن تعرف نفس السواد على الإطلاق.

وإذا تقرر هذا الأصل فإن الأوصاف التي ترد السامع فيها بالتمثيل من العقل إلى العيان والحس وهي في أنفسها معروفة مشهورة صحيحة لا تحتاج إلى الدلالة على أنها هل هي ممكنة موجودة أم لا؟ فإنها وإن غَنيتْ من هذه الجهة عن التمثيل بالمشاهدات والمحسوسات، فإنها تفتقر إليه من جهة المقدار، لأن مقاديرها في العقل تختلف وتتفاوت، فقد يقال في الفعل إنه من حال الفائدة على حدود مختلفة في المبالغة والتوسط، فإذا رجعت إلى ما تبصر وتحس عرفت ذلك بحقيقته وكما

(1) حنك الغراب بالتحريك: منقاره أو سواده قالهما (ش).

يوزن بالقسطاس، فالشاعر لما قال: «كقابض على الماء خانته فروج الأصابع» أراك رؤية لا تشك معها ولا ترتاب أنه بلغ في خيبة ظنه وبوار سعيه إلى أقصى المبالغ، وانتهى فيه إلى أبعد الغايات، حتى لم يحظ لا بما قل ولا ما كثر.

فهذا هو الجواب ونحن[1] بنوع من التسهيل والتسامح نقع على أن الأنس الحاصل بانتقالك في الشيء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر ليس له سبب سوى زوال الشك والريب.

[زيادة تأثير التمثيل بالمشاهدة]

فأما إذا رجعنا إلى التحقيق فإنا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر كما أخبر اللّه تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ والشواهد في ذلك كثيرة والأمر فيه ظاهر. ولولا أن الأمر كذلك لما كان لنحو قول أبي تمام:

وطول مقام المرء في الحي مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

معنى. وذلك أن هذا التجدد لا معنى له إن كانت الرؤية لا تفيد أنساً من حيث هي رؤية، وكان الأنس لنفيها الشك والريب أو لوقوع العلم بأمر زائد لم يعلم من قبل. وإذا كان الأمر كذلك فأنت إذا قلت للرجل: أنت مضيع للحزم في سعيك ومخطىء وجه الرشاد وطالب لما لا تناله، إذا كان الطلب على هذه الصفة ومن هذه الجهة، ثم عقبته بقولك: «وهل يحصل في كف القابض على الماء شيء مما يقبض عليه» فلو تركنا حديث تعريف المقدار في الشدة والمبالغة ونفي الفائدة من أصلها جانباً يفي لنا ما تقتضيه الرؤية للموصوف على ما وصف عليه من الحالة المتجددة مع العلم بصدق الصفة. يبين ذلك أنه لو كان الرجل مثلاً على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل من سعيه على شيء

(1) الجملة حالية.

فأدخل يده في الماء وقال: أنظر هل حصل في كفي من الماء شيء؟ فكذلك أنت في أمرك ـ كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل[1] ولو أن رجلاً أراد أن يضرب لك مثلاً في تنافي الشيئين فقال: هذا وذاك هل يجتمعان؟ وأشار إلى ماء ونار حاضرين وجدت لتمثيله من التأثير مالا تجده إذا أخبرك بالقول فقال: هل يجتمع الماء والنار؟ وذلك الذي تفعل المشاهدة من التحريك للنفس، والذي يجب بها من تمكن المعنى في القلب، إذا كانت مستفادة من العيان ومتصرفة حيث تتصرف العينان، وإلا فلا حاجة بنا في أن الماء والنار لا يجتمعان، إلى ما يؤكده من رجوع إلى مشاهدة، واستيثاق بتجربة.

ومما يدلك على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنساً، وإن لم يكن بك حاجة إلى تصحيح المعنى أو بيان لمقدار المبالغة فيه، إنك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التي تؤديه وتبالغ وتجتهد حتى لا تدع في النفوس منزعاً، نحو أن نقول وأنت تصف اليوم بالطول: يوم كأطول ما يتوهم، وكأنه لا آخر له. وما شاكل ذلك من نحو قوله:

في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما ليله بالحشر موصول[2]

فلا تجد له من الأنس ما تجده لقوله:

* ويوم كظل الرمح قصر طوله *[3]

على أن عبارتك الأولى أشد وأقوى في المبالغة من هذا؛ فظل الرمح على

---

(1) جملة كان لذلك... الخ جواب «لو كان الرجل مثلاً»... الخ.

(2) البيت لحندج (كقنفذ) المري. وصول بالضم: بلدة إبراهيم الصولي المشهور، والرواية الصحيحة في الشطر الثاني:

كأنما ليله بالليل موصول أي كأن الأنهار بين لياليه.

(3) البيت لشبرمة بن الطفيل وتمامه:

* دم الزق عنا واصطفاق المزاهر *

ويروى: واصطكاك المزاهر. وشبرمة كقنفذة والطفيل بكسر فسكون ففتح.

كل حال متناه تدرك العين نهايته، وأنت قد أخبرت عن اليوم بأنه كأنه لا آخر له، وكذلك تقول: يوم كأقصر ما يتصور، وكأنه ساعة وكلمح البصر و«كلا ولا» فتجد هذا مع كونه تمثيلاً لا يؤنسك إيناس قولهم: أيام كأباهيم القطا[1]. وقول ابن المعتز:

بـذلـت مـن يـوم كـظـل حـصـاة لـيـلا كـظـل الـرمـح غـيـر مـوات[2]

وقول آخر:

ظـلـلـنـا عـنـد بـاب أبـي نـعـيـم بـيـوم مـثـل سـالـفـة الـذبـاب[3]

[تعليل دقيق جليل في فلسفة التمثيل]

وكذا تقول فلان إذا هم بالشيء: لم يزل ذاك عن ذكره وقلبه، وقصر خواطره على إمضاء عزمه، ولم يشغله شيء عنه، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن، ثم لا ترى في نفسك له هزة، ولا تصادف لما تسمعه أريحية، وإنما تسمع حديثاً ساذجاً وخبراً غفلاً[4]، حتى إذا قلت:

إذا هَـمَّ ألـقـى بـيـن عـيـنـيـه عـزمـه[5]

امتلأت نفسك سروراً وأدركتك طربة ـ كما يقول القاضي أبو الحسن ـ لا

---

(1) ويقال أباهم أيضاً.

(2) واتاه يواتيه: طاوعه فهو موات وأصله الهمز.

(3) السالفة: ناصية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى قلت الترقوة، ومن الفرس هاديه أي ما تقدم من عنقه (ش) وقوله: قلت الترقوة القلت بالفتح النقرة في الجبل والمراد هنا نقرة الترقوة.

(4) الغفل بالضم: يوصف به ما يخلو من سمات كماله وحسنه يقال: فلاة غفل أي لا علم بها، ورجل غفل لم تسمه التجارب ومصحف غفل إذا جرد عن العواشر ونحوها من المحسنات، وكتاب غفل لم يسم واضعه. والكلام الغفل هنا ما ليس فيه من الحسن ما يؤثر في النفس ويحرك الوجدان.

(5) الشطر لسعد بن ناشب وتمامه: * ونكب عن ذكر العواقب جانبا *.

تملك دفعها عنك ولا تقل إن ذلك لمكان الإيجاز فإنه وإن كان يوجب شيئاً منه فليس الأصل له بل لأن أراك العزم واقفاً[1] بين العينين، وفتح إلى مكان المعقول من قلبك باباً من العين.

وههنا ـ إذا تأملنا ـ مذهب آخر في بيان السبب الموجب لذلك هو ألطف مأخذاً وأمكن في التحقيق، وأولى بأن يحيط بأطراف الباب. وهو أن لتصور الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله، والتقاط ذلك له من غير محلته، واجتلابه إليه من النيق البعيد[2] باباً آخر من الظرف واللطف، ومذهباً من مذاهب الإحسان لا يخفي موضعه من العقل. وأحضر شاهداً لك على هذا أن تنظر إلى تشبيه المشاهدات بعضها ببعض، فإن التشبيهات سواء كانت عامية مشتركة، أم خاصية مقصورة على قائل دون قائل، تراها لا يقع بها اعتداد، ولا يكون لها موقع من السامعين ولا تهز ولا تحرك حتى يكون الشبه مقرراً بين شيئين مختلفين في الجنس، فتشبيه العين بالنرجس عامي مشترك معروف في أجيال الناس جار في جميع العادات، وأنت تنظر إلى بعد ما بين العينين وبينه من حيث الجنس. وتشبيه الثريا بما شبهت به من عنقود الكرم المنور، واللجام المفضض، والوشاح[3] المفصل، وأشباه ذلك ـ خاص، والتباين بين المشبه والمشبه به في الجنس على ما لا يخفى.

وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد، كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب؛ وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب، وذلك أن موضع الاستحسان، ومكان الاستظراف، والمثير للدفين من الارتياح، والمتألف للنافر من المسرة، والمؤلف لأطراف البهجة، أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين، ومؤتلفين مختلفين، وترى الصورة

(1) وفي نسخة واقعاً.

(2) النيق بالكسر: أرفع موضع في الجبل.

(3) الوشاح بالضم وبالكسر: كرسان من اللؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينها معطوف أحدهما عن الآخر ـ وأديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحها، والمراد هنا الثاني (ش).

الواحدة في السماء والأرض، وفي خلقة الإنسان وخلال الروض، وهكذا طرائف تنثال عليك إذا فصلت هذه الجملة، وتتبعت هذه اللمحة[1] ولذلك تجد تشبيه البنفسج في قوله[2]:

ولازوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت

أغرب وأعجب، وأحق بالولوع وأجدر، من تشبيه النرجس، بمداهن در حشوهن عقيق، لأنه إذ ذاك مشبه لنبات غض يرف[3] وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف[4] بلهب نار مستول عليه اليبس، وباد فيه الكلف[5] ومبني الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه، وخرج من موضع ليس بمعدن له، كانت صبابة النفوس به أكثر، وكان بالشغف منها أجدر، فسواء في إثارة التعجب، وإخراجك إلى روعة[6] المستغرب، وجودك الشيء في مكان ليس من أمكنته، ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من أصله في ذاته وصفته، ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات، أو صادف له شبهاً في شيء من المتلونات، لم تجد له هذه الغرابة، ولم ينل من الحسن هذا الحظ.

---

(1) اللمحة بالفتح إما واحدة اللمح وهو اختلاس النظرة، وإما واحدة الملامح وهي محاسن الوجه (ش).

(2) أي ابن المعتز ويروي البيتان هكذا.

بنفسج جمعت أوراقه فحكى كحلا تشرب دمعاً يوم تشتيت

كأنه وضعاف القضب تحمله أوائل النار في أطراف كبريت

ويروي الشطر الثالث هكذا مع تأنيث الضميرين كما في الرواية الأولى.

(3) رف لونه يرف بضم الراء وكسرها رفاً ورفيفاً: برق وتلألأ. ورف النبات: اهتز واضطربت أغصانه.

(4) إما من شف يشف شفوفاً إذا رق فحكى ما تحته، أو من شف يشف شفاً إذا تحرك (ش).

(5) الكلف بالتحريك لون بين السواد والحمرة، وحمرة كدرة تعلو الوجه.

(6) الروعة بالفتح الفزعة والمسحة من الجمال (ش).

[تأثير اختلاف الجنس بين المشبه والمشبه به]

وإذا ثبت هذا الأصل وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين في الجنس مما يحرك قوى الاستحسان، ويثير الكامن من الاستظراف، فإن التمثيل أخص شيء بهذا الشأن، وأسبق جار في هذا الرهان وهذا الصنيع صناعته التي هو الإمام فيها، والبادىء لها والهادي إلى كيفيتها، وأمره في ذلك أنك إذا قصدت ذكر ظرائفه، وعد محاسنه في هذا المعنى، والبدع التي يخترعها بحذقه، والتأليفات التي يصل إليها برفقه ازدحمت عليك، وغمرت جانبيك، فلم تدر أيها تذكر، ولا عن أيها تعبر، كما قال:

إذا أتاها طالب يستامها تكاثرت في عينه كرامها

وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المشئم والمعرق[1] وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، وينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين، كما يقال في الممدوح هو حياة لأوليائه، موت لأعدائه، ويجعل الشيء من جهة ماء ومن أخرى ناراً كما قال:

أنا نار في مرتقى نظر الحا سد ماء جار مع الإخوان

وكما يجعل الشيء حلواً مراً، وصاباً عسلاً، وقبيحاً حسناً، كما قال:

حسن في عيون أعدائه أقـ ـبح من ضيفه رأته السوام[2]

ويجعل الشيء أسود أبيض في حال كنحو قوله:

---

(1) المشئم من أتى الشام، والمعرق من أتى العراق.

(2) وفي نسختنا: وجوه أعدائه، ولكن قال شيخنا: إن الرواية الصحيحة: عيون أعدائه وإن قوله: حسن خبر لمحذوف هو الممدوح، وفي عيون صفة لأقبح الذي هو خبر ثان، والسوام: الماشية.

لـه منـظـر فـي الـعـيـن أبـيـض نـاصـع ولـكـنـه فـي الـقـلـب أسـود أسـفـع[1]

ويجعل الشيء كالمقلوب إلى حقيقة ضده كما قال:

غـرة بـهـمـة ألا إنـمـا كـنـ ـت أغـراً أيـام كـنـت بـهـيـماً[2]

ويجعل الشيء قريباً بعيداً معاً كقوله:

* دان عـلـى أيـدي الـعـفـاة وشـاسـع *

وحاضراً وغائباً كما قال:

أيـا غـائـبـاً حـاضـراً فـي الـفـؤاد سـلام عـلـى الـحـاضـر الـغـائـب

ومشرقاً مغرباً كقوله:

لـه إلـيـكـم نـفـس مـشـرقـة إن غـاب عـنـكـم مـغـربـاً بـدنـه

وسائراً مقيماً كما يجيء في وصف الشعر الحسن الذي يتداوله الرواة وتتهاداه الألسن كما قال القاضي أبو الحسن:

وجـوابـة الأفـق مـوقـوفـة تـسـيـر ولـم تـبـرح الـحـضـرة

وهل يخفى تقريبه المتباعدين، وتوفيقه بين المختلفين، وأنت تجد إصابة الرجل في الحجة وحسن تخليصه للكلام وقد مُثلت تارة بالهناء ومعالجة الإبل

---

(1) الأسفع: الأسود المشرب بحمرة والاسم السفعة بالضم.

(2) يصف الشيب بأنه غرة شديدة، وإنما كان أغر في الوقت الذي كان فيه بهما أي أسود الشعر، وفي رواية أبي هلال «مرة» بدل «بهمة». هذا ما كتبته على البيت في حاشية الطبعة الأولى، وأجازه شيخنا إلا أنه علق على نسخة الدرس بإزاء قوله غرة بهمة: أراد من الشدة أنها صعبة الاحتمال ا هـ. ولم يظهر لي الآن وجه تفسير البهمة بالشديدة. ومن المعلوم أن الغرة في الأصل البياض في جبهة الفرس فوق قدر الدرهم ومنه: فرس أغر والبهمة كالظلمة وزناً ومعنى، والبهيم: الذي لاشية فيه من غير لونه، ومنه: ليل بهيم لا ضوء فيه، ويطلق الأغر على الحسن والأبيض من كل شيء وعلى السيد الكريم، فإذا كان يصف شبيه فهو يقول إنه أو أن لمته غرة كالظلمة في قبحها وكراهته هو أو كراهة الحسان لها، وأنه إنما كان رجلاً أغر في الوقت الذي كان شعره أسود بهيماً.

الجربي به[1] وأخرى بحز القصاب اللحم وإعماله السكين في تقطيعه وتفريقه في قولهم: «يضع الهناء مواضع النُقبَ (وهو الجرب) ويطبق المفصل[2]» فانظر هل ترى مزيداً في التناكر والتنافر على ما بين طلا القَطِران، وجنس القول والبيان، ثم كرر النظر وتأمل كيف حصل الائتلاف وكيف جاء من جمع أحدهما إلى الآخر ما يأنس إليه العقل ويحمده الطبع. حتى إنك لربما وجدت لهذا المثل إذا أورد عليك[3] في أثناء الفصول، وحين تبين الفاضل في البيان من المفضول قبولاً ولا ما تجد عند فوح المسك ونشر الغالية[4] وقد وقع ذكر الحز والتطبيق منك موقع ما ينفي الحزازات عن القلب، ويزيل أطباق الوحشة عن النفس.

[جعل التمثيل الشيء كعدمه أو ضده]

وتكلف القول في أن للتمثيل في هذا المعنى المدى الذي لا يجاري إليه، والباع الذي لا يطاول فيه، كالاحتجاج للضروريات. وكفى دليلاً على تصرفه فيه باليد الصناع، وإيفائه على غايات الابتداع، أنه يريك العدم وجوداً والوجود عدماً، والميت حياً والحي ميتاً، أعني جعلهم الرجل إذا بقي له ذكر جميل وثناء حسن بعد موته كأنه لم يمت وجعل الذكر حياة له كما قال: «ذكرة[5] الفتى عمره الثاني» وحكمهم على الخامل الساقط القدر الجاهل الدنيء بالموت. وتصييرهم إياه حين لم يكن ما يؤثر عنه ويعرف به كأنه خارج عن الوجود إلى العدم أو كأنه لم يدخل في الوجود.

---

(1) الهناء بالكسر: القطران والنقب كصرد: الجرب قال عبد الباقي.

وما الهناء منكم بمشف نقباً وطالما أشفى الهناء النقبا

(2) يقال: طبق السيف إذا أصاب المفصل قال الشاعر في وصف سيف:

* يصمم أحياناً وحيناً يطبق * ويقال للبليغ: قد طبق المفصل ويقال أيضاً * يضع الهناء مواضع النقب * يعنون أنه ماهر مصيب.

(3) وفي نسخة: إذا ورد عليك.

(4) النشر: الرائحة الطيبة، والغالية، طيب معروف.

(5) الذكرة بالضم: الصيت.

ولطيفة أخرى له في هذا المعنى هي إذا نظرت أعجب، والتعجب بها أحق ومنها أوجب، وذلك جعل الموت نفسه حياة مستأنفة حتى يقال إنه بالموت استكمل الحياة في قولهم: «فلان عاش حين مات» يراد الرجل تحمله النفس الأبية وكرم النفس والأنفة من العار على أن يسخو بنفسه في الجود والبأس ففعل ما فعل كعب بن مامة[1] في الإتيان على نفسه، أو ما يفعله الشجاع المذكور من القتال دون حريمه والصبر في مواطن الإباء والتصميم في قتال الأعداء، حتى يكون له يوم لا يزال يذكر، وحديث يعاد على مر الدهور ويُشهر، كما قال ابن نباتة:

بأبي وأمي كل ذي نفس تعاف الضيم مره
يرضى بأن يرد الردى فيميتها ويعيش ذكره

وإنه ليأتيك من الشيء الواحد بأشباه عدة، ويشتق من الأصل الواحد أغصاناً في كل غصن ثمر على حدة، نحو أن الزند بإبرائه[2] يعطيك شبه الجواد والذكي الفطن وشبه النجح في الأمور والظفر بالمراد. وبإصلاده[2] شبه البخيل الذي لا يعطيك شيئاً، والبليد الذي لا يكون له خاطر ينتج فائدة ويخرج معنى، وشبه من يخيب سعيه ونحو ذلك. ويعطيك[3] من القمر الشهرة في الرجل والنباهة والعز والرفعة. ويعطيك الكمال عن النقصان والنقصان بعد

(1) الظاهر أن يقال: فيفعل كما فعل كعب بن مامة قال شيخنا: هو الأبادي المشهور آثر رفيقه السعدي بالماء حتى مات عطشاً ونجا السعدي وله يقول حبيب:

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها والجود بالنفس أقسى غاية الجود

وقال له ولحاتم الطائي:

كعب وحاتم اللذان تقسما خطط العلى من طارف وتليد
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في الجهد ميتة خضرم صنديد
إلا يكن فيها الشهيد فقومه لا يسمحون له بألف شهيد

(2) يقال ورى الزند (كوعد) وأورى إذا أخرج ناره، ويقال: أصلد إذا صوت ولم تخرج منه النار.

(3) عطف على قوله: يأتيك من الشيء الواحد الخ.

الكمال كقولهم: «هلال نما فعاد بدراً» يراد بلوغ النجل الكريم المبلغ الذي يشبه أصله من الفضل والعقل وسائر معاني الشرف كما قال أبو تمام:

لهفي على تلك الشواهد منهما لو أمهلت حتى تصير شمائلا
لغدا سكونهما حجى وصباهما كرماً وتلك الأريحية نائلا[1]
إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بدراً كاملا

وعلى هذا المثل بعينه يضرب مثلاً في ارتفاع الرجل في الشرف والعز من طبقة إلى أعلى منها كما قال البحتري:

شرف تزيَّد بالعراق إلى الذي عهدوه بالبيضاء أو ببلنجرا[2]
مثل الهلال بدا فلم يبرح به صوغ الليالي فيه حتى أقمرا

[مأخذ التمثيل من الموجودات]

ويعطيك شبه الإنسان في نشأته ونمائه إلى أن يبلغ حد التمام، ثم تراجعه إذا انقضت مدة الشباب، كما قال:

المرء مثل هلال حين تبصره يبدو ضئيلاً ضعيفاً ثم يتسق[3]
يزداد حتى إذا ما تم أعقبه كر الجديدين نقصاً ثم ينمحق

وكذلك يتفرع من حالتي تمامه ونقصانه فروع لطيفة فمن ذلك قول ابن بابك:

---

(1) يروى: حلماً بدل كرماً، وقبل البيت الأخير:
ولا عقب النجم المرذّ بديمة ولعاد ذاك الظل جوداً وابلا
والرثاء لولدين لعبد اللّه بن طاهر ماتا في يوم أحدهما هوى من سطح؛ والآخر تردى في بئر.

(2) في كتاب المسالك * عهدوه في خمليخ أو ببلنجرا * وخمليخ وبلنجر والبيضاء مدن الخزر اهـ. وقوله: تزيد بالعراق أي ابتدأت زيادته فيه ثم لا زال يمتد إلى أن وصل إلى الذي عهدوه الخ، والبيتان من قصيدة قالها في مدح إسحق بن كنداج الخزري القائد الكبير عندما توج وقلد السيفين.

(3) اتسق الأمر: انتظم، والقمر: كمل وتم نوره.

وأعرت شطر الملك شطر كماله والبدر في شطر المسافة يكمل[1]

قاله في الأستاذ أبي علي وقد استوزره فخر الدولة بعد وفاة الصاحب وأبا العباس الضبي وخلع عليهما[2]. وقول أبي بكر الخوارزمي:

أراك إذا أيسرت خيمت عندنا مقيماً وإن أعسرت زرت لماما[3]
فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه أغب وإن زاد الضياء أقاما

المعنى لطيف وإن كانت العبارة لم تساعده على الوجه الذي يحب فإن الأغباب أن يتخلل وقتي الحضور وقت يخلو منه. وإنما يصلح لأن يراد أن القمر إذا نقص نوره لم يوال الطلوع كل ليلة بل يظهر في بعض الليالي ويمتنع من الظهور في بعض وليس الأمر كذلك لأنه على نقصانه يظهر كل ليلة حتى يكون السرار. وقال ابن بابك في نحوه.

كذا البدر يسفر في تمه فإن خاف نقص المحاق انتقب

وهكذا ينظر إلى مقابلته الشمس واستمداده من نورها وإلى كون ذلك سبب زيادته ونقصه وامتلائه من النور والائتلاق، وحصوله في المحاق، وتفاوت حاله في ذلك، فيصاغ منه أمثال ويبين أشباه ومقاييس، فمن لطيف ذلك قول ابن نباتة:

قد سمعنا بالغر من آل ساسا ن ويونان في العصور الخوالي
والملوك الأولى إذا ضاع ذكر وُجدوا في سوائر الأمثال
مكرمات إذا البليغ تعاطي وصفها لم يجده في الأقوال
وإذا نحن لم نضفها إلى مد حك كانت نهاية في الكمال

(1) يروى: ثوب كماله.

(2) وأبا العباس الضبي عطف على ضمير استوزره وهو أحمد بن إبراهيم الضبي، ولاه الوزارة فخر الدولة أولاً ولقب بالرئيس، ثم ولى بعده الأستاذ أبا علي الجليل وهجاهما أحد الشعراء من بيت المنجم فقال:

واللّه واللّه لا أفلحتم أبدا بعد الوزير ابن عباد ابن عباس
إن جاء منكم جليل فاجلبوا أجلي أو جاء منكم رئيس فاقطعوا رأسي

(3) لماماً بالكسر أي غبًّا.

إن جمعناهما أضر بها الجمـ ع وضاعت فيه ضياع المحال
فهو[1] كالشمس بُعدها يملأ البـ ـدر وفي قربها محاق الهلال

وغير ذلك من أحواله كنحو ما خرج من الشبه من بعده وارتفاعه[2]، وقرب ضوئه وشعاعه، في نحو ما مضى من قول البحتري: «دان على أيدي العفاة» البيتين. ومن ظهوره بكل مكان، ورؤيته في كل موضع كقوله:

كالبدر من حيث التفت رأيته يهدي إلى عينيك نوراً ساطعاً

في أمثال كذلك تكثر. ولم أعرض لما يشبه به من حيث المنظر وما تدركه العين نحو تشبيه الشيء بتقويس الهلال ودقته، والوجه بنوره وبهجته، فإنا في ذكر ما كان تمثيلاً وكان الشبه فيه معنوياً.

(1) قوله فهو أي «مدحك» والخطاب للممدوح.
(2) أي القمر.

obeikandl.com